سلسلة المحاضرات الاخلاقية

(١)

من أين تبدأ حركة الاصلاح

٢٨ / ذي الحجة / ١٤٢٨

٨/كانون الثاني / ٢٠٠٨

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

نقف على أبواب شهر محرم الحرام، وذكرى شهادة الإمام أبي عبد الله الحسين(ع)، وبهذا الخصوص كانــت الكلمــة التي جعلها الإمام الحسين(ع) منطلقاً لحركته هي قوله(ع): (ألا تَرونَ إلى الحقِ لا يُعملُ به والى الباطِــل لا يُتنــاهى عنه، لِيرغَبَ المؤمن في لقاء الله، ألا وإني لا أرى الموتَ إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ بَرَما).[1]

---

[1]) بحار الانوار / ج ٤٠ / ص ٣٨١

مرجعية الحق

ننطلق من هذا النص إلى حوار مطــروح فـــي الـــسجال الفكري المعاصر، وهو ان المرجعية لله أم للإنسان؟ ومـــن أين يأخذ الإنسان قراراته، وسلوكه وتشريعاته؟

الفلسفة المعاصرة والحديثة اليوم الغالبة على العالم والتـــي تسمى بـــ(الفلسفة الحداثية)، تنطلـــق مـــن فلـــسفة إســـمها (أصالة الإنسان) ومرجعيته، وأنه على البـــشر الرجـــوع لأنفسهم، ولا نعترف بشيء فوق الإنسان أو في موازاتـــه، وأن المرجع هو الإنسان فقـــط! وهـــذا هـــو مـــا يـــسمى بمبدأ(النزعة الإنسانية)، وبـــ(الفلسفة الذاتية)، و(مَرجعيـــة الإنسان).

وفي مقابل هذا المبدأ تدعو فلسفة الأديان التوحيدية وعلـــى رأسها الإسلام إلى مبدأ (مرجعية الله)، الله هو المرجع في التشريع، وفي تحديد السلوك، وتحديد المواقــف للإنــسان، لكن حتى لا نجعل الله في مقابل الإنــسان، فــأن الأديــان التوحيدية، والنظرية الإسلامية بالخصوص، تؤمن بأصالة الحق ومرجعيته، فما هو حق يفرض نفسه، وما هو باطل يجب أن يكون مرفوضاً سواء صدر من الإنسان أو مــن غيره، وسنجعل حديث الإمام الحسين(ع) منطلقاً للوقــوف عند مبدأ (أصالة الحق) حيث يقــول(ع):(ألا تــرون إلـــى الحق لا يُعملُ به والى الباطِل لا يُتناهى عنه) وهذا اعتماد على نظرية (اصـــالة الحــق) و(مرجعيـــة الله)، الإمـــام

الحسين(ع) لا يريد ان يأمر بشيء غير ما يأمر به الإسلام والأديان التوحيدية، والتي تقول للإنسان ليكن مقياسك هو الحق، فما كان حقاً فخذ به وما كان باطلاً لا تأخذ به، فالحق أعلى منك، والحقيقة الكبرى أعلى من الإنسان، ويجب عليه ان يبحث عن الحقيقة الكبرى ويجب أن يبحث عمّا هو الحق، وليس عمّا يريد أو لا يريد، أو يقتنع به أو لا، أو يرغب أو لا يرغب به.

القرآن الكريم حينما يدعونا لعبادة الله يدعونا لذلك لأن الله هو الحق {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}[٢] ، ولأنه الحق والحقيقة، إذن يجب علينا أن نلتزم بالحقيقة.

[٢]) سورة الحج: الاية ٦

هذا من روائع القرآن الكريم، ودقائقه، فالارتباط بالله تعالى لأجل أنه هو الحق، ويجب الارتباط بالحق، وليس لأن الله تعالى هو الرب الذي يريد أن يُعبد بل لأنه هو الحق ونحن إنما نرتبط به لأجل ذلك، وهذه الفلسفة وهي فلسفة(مرجعية الحق وأصالة الحق) تمتد آثارها إلى كل مفاصل حركة الإنسان الفرد والمجتمع، وتنطلق منها كل التشريعات والرؤى الإسلامية.

أمّا الحداثة فانها تقول للإنسان ليس لديك مرجع أعلى منك، بل المرجع هو أنت، وهذا هو ما يسمى بـ(أصالة الإنسان)، الإنسان هو الأصل، فيجب أن يعيش كما يشاء

ولا شيء فوقه. فلو أراد الإنسان إن يحوّل حياته إلى حياة حيوانية يقال له إفعل ذلك لأنك أنت المرجع في كل شيء.

بينما نظرية أصالة الحق و(مرجعية الحق) تقول هل يقبل الحق أن يحوّل الإنسان حياته الى حياة بهيمية أم لا؟ فالإنسان ليس هو المطلق الذي يحدّد القرار كما يشاء، بل الحق هو الذي يحدّد الموقف.

هناك مصدر أعلى للتشريع، والنظرية الإسلامية تقول أن الله هو المصدر الأعلى للتشريع، وعلى الإنسان أن يرتبط بالحق ومرجعيته وتشريعه.

هذا الإطار العريض يبين لنا الفلسفتين المتصارعتين بين مرجعية الإنسان ومرجعية الحق، ولكن الأداء الفاشل

للكنيسة في بعض المواقع، طرح هذه القضية بشكل خاطئ وصوّر المعركة كأنها معركة بين الله وبين الإنسان، فهناك أصالة الإنسان، ويقف بالضد منها أصالة الله، وكأن الله في مقابل الإنسان وهذا خطأ، وهو الذي أحدث عداءات وهمية بين الإنسان الذي يعتز بإرادته وفكره وبين الدين الذي يدعو الى عبادة الله،فقد جعلوا الله تعالى كأنه يريد ان يصادر إرادة الإنسان، لذلك فقد خسرت الكنيسة معركتها أمام الحداثة الداعية الى أصالة الإنسان واستسلمت الكنيسة فصار شعارها التقليدي هو المجد والخلود لله في السماء وفي الارض السلام. وهكذا أصبح الله معزولاً في عالم السماء ولا علاقة له بالأرض.

الحركة الإصلاحية..

وانطلاقاً من حديث الإمام الحسين(ع) الذي يقول فيه: (ألا ترونَ الى الحقِ لا يُعملُ به والى الباطِل لا يُتناهى عنه)[٣]، نحاول أن نعرف ما هو وجه التمايز بين الحركة الإصلاحية التي قادها الأنبياء، وقادها الإمام الحسين(ع)، وبين الحركة الإصلاحية التي تقودها الحضارات الأخرى الداعية الى الاصلاح أيضاً، فكل العالم اليوم يتحدث عن الإصلاح؟

فما هو الفرق بين الإصلاحين؟ هل هناك تعاكس في الاتجاه أم وحدة اتجاه؟!

---

[٣]) المصدر السابق

وبهذا الخصوص أدعوكم كطلاّب علم أن تفتحوا أذهـانكم لمثل هذه الأفاق الحديثة والمعاصرة.

النزعة الإنسانية التي تدعوا لها الفلسفة الحداثية مـا هـو المقصود منها؟ نحن أيضاً لدينا نزعـة إنـسانية، ونـؤمن بالإنسان، فماذا تعني نظرية أصالة الإنسان، ونحن نعتقـد بأن الإنسان مكرم، وهو الأصـل لأن الله خلـق النـاس أحراراً، ولا نقول بهامشية الإنسان، ونحن أيضا مع أصالة الإنسان حيث نرفض ان يتحول الإنسان الـى أداة يتـسلم أوامره من غيره، وأنه مجرد آلة، فـنحن أيـضاً نـؤمن بمرجعية العقل الإنساني، ولهذا فان أول مصدر للتـشريع في الإسلام هو العقل حتى قَبل الكتاب والسنة، فـ(أول ما

خَلَق الله العقل، فقال له اقبل فأقبل، فقال أدبـــر فـــأدبر)[٤].

فالاسلام لا يريد ان يتنكر للإنسان ويصادر مرجعية عقله.

ما هو المقصود اذن بـــ مبدأ (أصالة الإنسان) من وجهـــة نظر الحداثة؟

أصالة الإنسان:

الجواب ان المقصود بـــ(أصـــالة الإنـــسان)، و(النزعـــة الإنسانية)، أو (الفلسفة الذاتية) ثلاثة أمور:

الأمر الأول: لا سلطة فوق الإنسان.

الأمر الثاني: لا قيمة أخلاقية إلّا من خلال منافع الإنسان.

---

[٤]) اصول الكافي، ج ١، باب العقل والجهل ص ٦٧

الأمر الثالث: لا سعادة إلّا من خـــلال التوافــق مـــع ذات الإنسان، وهذا هو جوهر الفلسفة الحداثية اليوم وهو مـــا تعنيه بأصالة الإنسان.

الأمر الأول: الإنسان هو السلطة العليـــا فـــي الأرض، ولا توجد سلطة أعلى مـــن الإنـــسان لا الله، ولا النبـــي، ولا المجتمع، ولا التقاليد، ولا الأعراف ، أو أي تسمية كانت، الفلسفة الحداثية تقول لا سلطة فوق الإنـــسان، إذن المجـــد والخلود لله في السماء والـــسعادة والعـــز للإنـــسان فـــي الأرض، فهما مملكتان مملكة الأرض للإنـــسان، ومملكـــة السماء لله.

<u>الأمر الثاني</u>: الفلسفة الحداثية لا تؤمن بقيم القبيح والحَسَن كثوابت كونية، فلا توجد لديها ثوابت أخلاقية كونية، بل إن كل ما يحقق للإنسان منفعة فهو حَسَن، وما لا يحقق له منفعة فهو قبيح، وهذا ينعكس على مجمل الحياة الغربية، فإذا أرادت مجموعة من الناس السير عراة في شوارع لندن سنويا فلا مشكلة، حيث يقال نحن لا نعتقد بأية قيمة أخلاقية إلّا ما تحقق للإنسان منفعة أو رغبة شخصية، لا توجد ثوابت أخلاقية سواء كانت حسنة أو قبيحة، مقولة ان الصدق حَسَن والكذب قبيح، الظلم قبيح، والعدل حسن، هذه المقولات مرفوضة لان معناها افتراض مرجعيات أخرى فوق الإنسان، وهو أمر ترفضه الحداثة.

الأمر الثالث: السعادة في النظرية الإسلامية مــن خـــلال التوافق مع الحق،{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[5]، أما الفلسفة الحداثية فانها تقول قد أفلح من توافق مع الأهــواء الذاتيـــة، كــم تستطيع ان تكسب في الدنيا هذه من إشباع أهوائك الذاتيـــة فأنت سعيد، وعليك الانطلاق بكل نزعاتــك التـــي وُلِــدْتَ عليها بعيداً عن كل القيود.

السعادة وفق هذه النظرية الحداثية، هي من خلال التوافق مع الذات، ولهذا إذا كانت مثلا رغبة هذه البنت أن تتزوج كلباً، فالسعادة هي ان تتوافق مع ذاتها ورغبتها بعيدا عــن أية قيمة اخلاقية.

---

[5]) سورة المؤمنون: اية ١

أصالة الحق: الاسلام يؤمن بمبدأ (أصالة الحق) وهذا المبدأ ينعكس الى القضايا الثلاث:

أولاً: هناك سلطة فوق الإنسان وهي سلطة الحق، وأمر الحق يجب ان يكون أمراً نافذاً، والإنسان لا يُمثل الحق دائما.

ثانياً: هناك قيم أخلاقية ثابتة قد لا تحقق منافعاً للإنسان بالمنظور السريع وهي قيم لا تخضع لرغبة الإنسان، بل الإنسان هو الذي يجب ان يخضع للقيم الأخلاقية.

ثالثاً: السعادة في الفلسفة الحداثية تتحقق من خلال التوافق مع الذات.

أما في الفلسفة الدينية فأن السعادة تأتي من خلال التوافــق مع الحق، إن توافقت مع الحق فأنت سعيد، وإذا لم تتوافق مع الحق فلست بسعيد، والحق يقول هناك معــاد، ويــوم قيامة، وجنة ونار، وحساب، فإذا توافقت مع الحق فأنــت ناجح، وإذا لم تتوافق ولم تعترف بيــوم القيامـــة، والجنـــة والنار والحساب فانت خاسر {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَــاعْتَرَفُوا بِــذَنبِهِمْ فَــسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ}[٦].

السعادة في النظرية الإسلامية

سعادة الإنسان وفق النظرية الإسلامية من خلال توافقه مع الحق، وليس من خلال إعراضه عن الحق {وَالْعَــصْرِ* إِنَّ

[٦]) سورة الملك: اية ١٠، ١١

الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[٧]

هؤلاء هم المتوافقون مع الحقيقة{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) الذين انسجموا مع الحقيقة عملياً هؤلاء هم الفائزون السعداء.

والقرآن الكريم يقول: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} الحق وليس التواصي بهوى النفس، هذا هو التقابل بين أصالة الإنسان وأصالة الحق في هذه المداليل الثلاثة.

الأنبياء والأئمة قادوا حركة إصلاحية للإنسان والإمام الحسين(ع) نهض بحركة إصلاحية (إنما خرجت لطلب الإصلاح)[٨] إذن هذه حركة إصلاحية.

[٧]) سورة العصر : اية ١، ٢، ٣
[٨]) المناقب لابن شهراشوب، ج٤، ص ٨٩

الإسلام يعتقد إن أساس الحركة الإصلاحية هو (الارتباط بالله)، الذي يعني الارتباط بالحق، بعكس الفلسفة الحداثية التي تقول أن أساس الحركة الإصلاحية هو الارتباط بمنافع الإنسان وما أسموه بالفلسفة النفعية، (البروغماتية).

الحركة الإصلاحية في الأديان أساسها الارتباط بالله تبارك وتعالى، وعلى اساس ذلك كانت القيم التي طرحها الإمام الحسين(ع) هي الارتباط بالله تعالى وليس شيئاً آخر(ليرغب المؤمن في لقاء الله)[٩] هذا هو أساس الحركة الإصلاحية وفق النظرية الإسلامية.

(ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به، والى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلّا

---

[٩]) البحار، ج ٤ ، ص٣٨١

سعادة)[10] وهكذا كان يقول(ع): تأكيداً لهذا الهدف الكبيـــر (ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته مُوَطِّناً على لقاء الله نفـــسه فليرحل معنا) فالهدف والاساس هو لقاء الله تعالى.

انظروا إلى مفاهيم السعادة عند الإمام الحسين(ع):(إنـــي لا أرى الموت إلا سعادة) فالتوافق مع الذات الـــذي تطرحـــه الفلسفة الحداثية ليس من السعادة بشيء، ويقـــول (لا أرى الموت إلا سعادة) لأن السعادة في المنظور الـــديني هـــي (التوافق مع الحق) وليس التوافق مـــع الـــذات (ليرغـــب المؤمن في لقاء الله)، هذا هو أساس الحركة الإصلاحية في المنظور الديني وفي حركة الإمام الحسين(ع).

[10]) المناقب، ابن شهر اشوب، ج ٤،ص ٦٨

الإصلاح حركة تبدأ من الذات

في كلمة للإمام علي(ع) يقول فيها:(من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس)[11]، فالانطلاقة من نفس الإنسان، (ان تصلح فيما بينك وبين الله تعالى، فالمقياس هو الله وهو الحق.

فحركة الإصلاح تبدأ من نفس الإنسان وطالب العلم إذا أراد الإصلاح في مجتمعه فعليه أولاً البدء بنفسه(من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله بينه وبين الناس).

كلمة أخرى للإمام علي(ع) في هذا السياق، تقول:(إحصد الغِلّ من صدرِ غيرك بقلعِهِ من صدرك)[12] إحصد الغل، والأنانية، والحسد، من صدر غيرك لكن كيف؟ تبدأ من

[11]) في ظلال نهج البلاغة، ج ٦ ، ص ٤٧٢، حديث رقم ٤١٧
[12]) نهج البلاغة ، ج ٣، الكلمات القصار للامام علي(ع)

صدرك بقلعه من صدرك اولاً، كن انساناً صالحاً متواضعاً بعيداً عن الأنا ستصلح بذلك صدور الاخرين تجاهك. وقد تقول إن الإمام علي(ع) ألم يعاديه ويقاتله مجموعة كبيـــرة من الناس؟ نعم، لكن تلك خارج مـــسؤوليتك ولا حـــساب عليك أن تبدأ باقتلاع الأنانيات من صدرك، وقد تدخل في حروب ومعارك سياسية وعقائدية، لكن ما زلت على حق في تلك الحروب فأنت ناجح، عليك ان تعمل بتطهير قلبك ليشع نورك في قلوب الأخرين. وسوف تنفتح لـــك آفـــاق كبيرة، وسيبقى هناك أناس لا يريد الله هداهم{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ}[١٣] الذي لا يريـــد الله هدايته يبقى حاقداً عليك لأنه حاقد علـــى الله تعـــالى، أمّـــا

[١٣]) سورة القصص: اية ٦

الناس الطيبون أصحاب الفطرة الطيبة فانهم سوف يندفعون إليك.

هذا ما يهمنا أيها الإخوة طلبة العلوم الدينية، أن مبدأ الحركة الإصلاحية ينطلق من نفس الإنسان وفي محرم الحرام علينا أن نتعلم كيف نصلح أنفسنا.

راقب كلمات الإمام الحسين(ع) في محرم الحرام لا تجد فيها الّا الإصلاح الذاتي والتعلم الذاتي والطهر الذاتي، فهو مع العيال بشكل من النقاء والطهارة، ومع الأصحاب بشكل آخر من الخُلُق السامي، وهو كذلك حتى مع العدو، وحتى مع الحيوان، وفي حال المصيبة، ولا يوجد خطأ واحد في

كل مسيرته من اولها الى آخرهـــا وفـــي كـــل الظـــروف الصعبة ومع كل الاطراف.

سعد بن عبادة في فتح مكة دخل وقد غلبته مشاعر النصر فقال (اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمه)[١٤] فالإنـــسان لحظة العنفـــوان قـــد يفقـــد المقـــاييس الـــصحيحة لكـــن الرسول(ص) رفض ذلك وأعطى شعاراً آخر (اليوم يـــوم المرحمة، اليوم تحمى الحرمة) نحن حتى في ساعة النصر يجب ان لا نحيد عن الحق حتى في شـــعاراتنا، وحـــديثنا، وأخلاقنا، وداخل أعماقنا، فحين دخل رســـول(ص) مكـــة دخلها متواضعاً مطأطأ رأسه كأنه هو المغلوب!!

[١٤]) سيرة ابن هشام ، ج ٤، ص ٣٠، عن مجمع الزوائد ، ج ٦/ ١٦٩

هذا يحتاج الى قدرة، ورقابة كبيرة للنفس، لكي لا تخـــرج منا كلمة سيئة حتى مع العدو، ويجب أن أتحدث مع العدو ليس بخلاف المقاييس الأخلاقية مع العلم أنه عدو، ولكـــن الله يراني كيف أتعامل، هذا هو النقاء العظيم الذي لاحظناه في حركة الامام الحسين(ع).

الحسين(ع) مثلاً وهو في قمة العطش حين وضع أقدامـــه في الفرات فمدَّ الفرس رأسه ليشرب والحسين(ع) مدَّ يـــده ليشرب فأنسحب الحسين(ع) كما في القـــصة المعروفـــة، وقال وهو يخاطب الفرس:(أنا عطشان وأنت عطـــشان لا والله لا اشرب حتى تشرب)[١٥] هذا في أي مقياس يـــدخل؟ هذا النقاء العظيم في التعامل مع حيـــوان!! والحـــسين(ع)

---

١٥) بحار الانوار ، ج ٤، ص ٥٠

يتقطع قلبه عطشا لكن لديه شيء آخر، وهو نقـــاء الـــنفس قبل ما هو استحقاق الأعداء وغيرهم، يجب ان لا نخطـــأ اخلاقيا حتى في شرب الماء، ولهذا أصـــبح اســـم الإمـــام الحسين(ع) مكتوباً على ساق العرش، أي ســـاق الحقيقـــة الكونية الكبرى، والعرش هو رمز للقـــدرة التـــي تحكـــم الكون، مكتوب على العرش (الحـــسين مـــصباح الهـــدى وسفينة النجاة) كيف كان ذلك؟ نعم تـــأملوا فـــي مواقـــف الحسين(ع) تجدون كيف انه مـــصباح الهـــدى، ونمـــوذج الطهر والنقاء وبأعلى المستويات بما يستحق أن يخلّد فـــي ساق العرش.

من أجل ذلك أصبح نور الحسين(ع) يتوهج، لأن نوره نقي يصل لأولئك القادرين على استقبال هذا النور، يوجد ناس ليس لديهم استقبال لهذا النور فهم صمّ بكم عمي.

لاحظوا العباس(ع) في كربلاء، أين هي عظمته؟ ليس في بطولته البدنيّة فيوجد أبطال كثيرون في العالم، لكن العباس(ع) الذي أراد أن يشرب الماء فتذكر عطش الحسين(ع) فرمى الماء من يديه، وهذا الموقف لا يصنعه أحد من البشر الّا اذا بلغ مرتبة عالية من الكمال، مع انه لو كان يسأل الحسين(ع) ، لسمح له بالشرب، ولو كان يسأل الأطفال لما مانعوا بأن يشرب، لكنه لا يشرب، وبعد

ذلك يُقتل عطشانا فيا له من نقاء عظيم، ويا له من كمـــال إنساني عظيم.

طالب العلم يجب أن يتعلم إذا أراد أن يصبح مرشـــداً، أو واعظاً، مؤثراً في قلب السامع، يجـــب أن يراقـــب نقـــاءه وكلماته.

هذا ما نتعلمه من سيرة الحسين(ع) ونحن نقف على أبواب محرم الحرام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.